الجزء الخامس

الفصل الرابع

آل الأمر بسلمى الى مصح دمشق.. انها تذرع الشرفة المطلّة على الغوطـة جيئة وذهابا، السماء مكفهرة، والريح الشرود تطاير شـعرها وسـلمى فـي ضحى ذلك النهار تنتظر دورها على الأشعة..

مهما كانت النتيجة فسلمى لن تبالي.. ستحيا لحظتها الحاضرة بتمامها حافلة بما عليها أن تنجزه للإذاعة، ولن تبالي بالغد أكثر مما يبالي به طفل سعيد..

ولكن أيسعها أن تفعل؟ وحتى لو نسيت نفسها فهل يمكنها أن تنسى رجاء؟ كم يشق عليها أن تخيب أملها بالزيارة بعد أن أثارت شوقها.. وماذا يكون حالها لو فشل عبد الرحمن في ايجاد عمل له في دمشق، وعجز عن نفقات المصح فتعرضت لما يذلّها من كلمة جارحة أو تهديد مهين؟ لقـد تعقـدت مـشاكل الأسرة بما لا يسهل حلّها!..

وجاء دورها.. وحملت اليها الأشعة بشرى.. انه انفجار شرياني ولقد التـأم، وما تحتاج الاّ الى القليل من العناية لتسترد ما خسرت من عافية.. وهتفـت وقد أطارها الفرح:

- أيمكنني العودة الى البيت ومزاولة عملي؟
- لا، أنصحك بالبقاء في المصح بضعة أشهر.. فلن تتوفر لك العناية فـي المنزل ويخشى عليك أن تتطور الحالة..
- أيمكن أن تسمح لي بغياب أسبوع؟
- الى أين؟
- الى بيروت في عمل ضروري..
- لا، أخشى عليك اجهاد الطريق..
- ولكن! ألم تقل لي أني معافاة؟
- نعم ولكن ليس معنى هذا أنك كاملة القوة..

- انه أمر يتوقف عليه سعادة انسان عزيز علي.. فأرجوك أن تسمح لي ان لم يكن من بأس علي..
- بل هناك من بأس.. فدعي غيرك يقوم بمهمتك.. لا تفكّري الاّ بنفسك..

ورأت سلمى عبث الإصرار فانبرت الى حقل الصنوبر حانقة تنتجب قضيبا وتضرب به الشجر..

وفي عصر ذلك اليوم زارتها عائلتها وجلسوا جميعا في غرفة الطبيب وكانت المدفأة تتوهج.. وحدثهم الطبيب عن حالتها وما ارتآه من بقائها في المشفى بضعة أشهر حتى تتعافى.. وتركهم ومضى الى عمله..

قرروا السفر الى اللاذقية وإبقاء خالد عند عمته حتى يتقدم لامتحان البكالوريا.. واتفقوا على إرسال خالد الى رجاء للإطمئنان عليها، ولإبعاد أية شبهة ممكن أن تعلق بنفسها من ناحية سلمى.. فهي تعلم أن أختها لا تعد جزافا، وسيساورها في شأنها قلق ربما أضر بها..

وترتاح سلمى للتدبير، وتنتظر أوبة خالد بفارغ صبر.. وما أن يستقبلها حتى تقرأ باحساسها المرهف على صفحة وجهه ما يزعجها..

سارت واياه على الطريق المشجر، ثم انعطفت الى حرج الصنوبر وهي تسأله بلهفة عن صحة أختها الغالية، فلا يجيبها بما يبرد الغليل..

وتفرست في وجهه لتنفذ الى أعماقه وقالت بلهجة هادئة: "لن تكون أقوى مني احتمالا.. أخبرني كل شيء عنها.. انها ليست على ما يرام.. ولا تستطيع أن تقنعني بغير هذا.. شتان بين ملامحك في زيارتك الأولى لها وبين اليوم.. أخبرني ما بها اني مستعدة لاحتمال أقسى الفروض، فلا تتركني في هذا القلق اللاهب!"..

- أتعديني أن تكوني هادئة الأعصاب؟..
- كفى ياخالد.. لا أحب هذه المداورة.. أفرغ ما في جعبتك فماذا تنتظر؟
- ليست حالتها سيئة جدا.. هناك أمل لو أخذت إبر ستربتومايسين.. كانت بحاجة اليها منذ توقفت إبرتها الهوائية.. ولقد جرب لها دواء مستحدث،

فأصابها ما يشبه التسمم وعانت معاناة قاسية ولكن حالتها تحسنت والحمد لله..

وراحت سلمى تكلتم لوعتها: "وكيف حرارتها؟"

- ترتفع وتنخفض..
- أهذا كل شيء؟
- هذا كل شيء..
- لا يمكنني أن أصدق.. أتتحرك؟.. أتسير؟.. أتتحدث باندفاعها المعهـود، أم أنها ملازمة الفراش وقد غلبها الوهن؟.. أمـا سـألت الطبيـب عـن حالها؟..
- كلاّ ولا هي حدثتني.. أخبرتني بالأمر رفيقتها البدويـة التـي تـشاركها الغرفة..
- يا الله يا خالد! أتصل الى هناك ولا تستفسر عن كل شيء، أم أنك تخفي أشياء عني؟
- لست أخفي شيئا.. ان من طبعي أن أمهد النفس لاحتمال فروض أقـسى من الواقع، حتى يحتمل الواقع بطيبة آخر..

سلمى لا يقر لها قرار.. وما أن تناولت عشاءها حتى أسرعت الى سـريرها تكتب الى رجاء رسالة مع بعض التحوير في الشخصيات.. فالطبيب المدير والمصح الكلية التي تدرس فيها، ويسعها فيما عدا ذلـك أن تتحـدث علـى سجيتها..

"لم يطفئ خالد غلتي.. كلامه عنك مقتضب أزعجني ولم أشعر بالإطمئنان.. كيف أنت أخبريني، وافصحي، وفصلي.. والاّ قمت بعمل جنـوني فتركـت وظيفتي غير مبالية بشيء وجئت اليك بنفسي..

انك لا تصدقين لو أخبرتك بأنك كل ما يشغل قلبي وفكري.. في حلمي أنت وفي يقظتي أنت، وأكاد لا أحسن القيام بواجبي من كتابة وتدريس..

أسلمت برنامجا في الإذاعة لأموله كل أسبوع، فوجدت أن ذهني مشغول ولا أستطيع أن أفيه حقه.. فطلبت من خالد أن يشتري لي كتابـا تـصدره "دار

بنجوين" كل عام لأعظم كتاب القصة القصيرة العالميين لأترجم منه للإذاعة بعد أن تنفذ عندهم القصص الموضوعة لي..

أربعة ليال متوالية قبل أن أبعث اليك بخالد، وأنا أحلم بأنك جئت الى دمشق، وتخبريني بأنك تريدين الإمتحان ثم العودة الى المصح.. ولعلّ هـذا راجـع لكثرة ما أردد للسائلين عن أختي الثالثة رجاء التي لا أكف عن الحديث عنها بأنها في كلية في بيروت، فصدقته في حلمـي وتخيلتـك تعـودين لتأديـة الإمتحان.. ونتبادل القبل وأشعر بحرارة أنفاسك وأصغي الى حديثك العذب، حتى أنني في المرة الرابعة كنت أصيح: "يا الهي يارجاء! أهذه أنت؟ اننـي لثلاث ليال أحلم بقدومك وها قد تحقق حلمي.. ثم ينتابني الـشك فـأقول "أم ترى الآخر حلم؟" فتجيبيني "بل يقظة" فأمسك بيديك "نعم، نعم، أنا في يقظة.. ما أسعدني يارجاء أنك في صحة جيدة!.. ما أرحم الحياة بـي أن أعادتـك وأعادت البهجة الى روحي"..

وأستيقظ لأشعر بخيبة الأمل، وبعاصفة هوجاء في صدري تمـور، وأبكـي شوقا وحنينا وقلقا ما شاء لي البكاء حتى مطلع الفجر..

وألح على مديرنا في اليوم التالي أن يسمح لي بالسفر فيعارض، ولم أشأ أن أخبره بالحقيقة.. ويقترح خالد السفر اليك فنحبذه وخصوصا حين يبلغنا تعذر ارسال حوالة اليك وبعض الهدايا بالبريد لتوتر العلاقات بين سوريا ولبنان..

وحسدت خالد من صميم فؤادي اذ أقلّته السيارة اليك.. لا بأس يا رجـائي، انني سأقتنص أول فرصة متاحة وستريننني قربك بغير سابق انذار..

ان مديرنا معجب بك، وقد أريته صورك، وقصصت عليه بعض حوادثـك.. وكم سره غضبك يوم دخلت ردهة المدرسة في بيت جالا، واذا بك تفـاجئين بصف طويل من الفتيات الصغيرات ينتحبن، وقد علّق على ظهر كل مـنهن ورقة "كسلانة" فانبريت لا تلوين على شـيء تنـزعين الأوراق وتمزقينهـا وتصرفين الفتيات.. ووقفتك المتحدية أمام المعلّمة تهتفين: "المدرسة لتربيـة النشء وتعليمهم، وتنمية القدرات والإعتزاز بـالنفس، لا لحجـز الأطفـال وإرهابهم، وإعداد جيل من الخائبات الوجلات..

أتذكرين؟ يا لأيام بيت جالا ما أروعها! كم لنا من ذكريـات حلـوة فيهـا: دراستي للعزف عند راهباتها، وقراءتي للأناشيد المريمية في الأعياد اذ كنت وحدي من تتقن العربية بينهن، ومشاويرنا الى بيت لحم ودخـول كنيـستها وإشعالنا للشموع فيها.. لقد تعلمنا هناك أن الإنسان واحد في جميع الأديـان! وهذا سيكون له قيمة كبرى في حياتنا، وصداقاتنا، وفهمنا الإنساني العميـق لمشاكل عصرنا..

اننا جميعنا في صحة جيدة وقد أفادني هواء دمشق كثيـرا.. خالـد يـدرس للبكالوريا.. سعاد التحقت بالمدرسة في صف السرتفيكا.. وقد جهزت بكـل لوازمها من صندوق التعاون حتى المريلة السوداء والقبة النايلون البيضاء.. وهشام كما تعلمين يحب المدرسة ويحبه المعلمون، ولقد سرا كثيرا بهـديتك ورقّص هشام البهلوان، وأنامت سعاد اللعبة معها في الفراش..

يا حبيبتي رجاء، لست بحاجة لنؤكد لك أشواقنا نحوك، وخـصوصا مامـا، بدمعها المترقرق الجليل حين تذكرك، وعبد الرحمن بتأثره الصامت البليغ.. هناك أمل يبرق بايجاد عمل في دمشق، فان لم يتحقق سافروا الى اللاذقيـة حيث أديب عند أختك، وسيدبر وعبد الرحمن شؤون العائلة ريثمـا يتخـرج خالد ويعين معلما هناك.. وسأبقى أنا وخالد هذه الفترة عند عمتي..

سأخاطر وأبعث لك بالرسالة مائة ليرة حصلت عليها مؤخرا مـن الإذاعـة ريثما تعود المعاملات الى سابق عهدها.. لا تحـسبي حـساب المـستقبل.. صحتك أثمن كنز لنا.. فبحق السماوات جاهدي لتستردیها!..

أريد أن يرسل لي طبيبك تقريرا طبيا مفصلا عن صحتك.. وكل مـا أنـت بحاجة له من علاج، فأكون ممتنة له كل الإمتنان!..

سلمى

أختي الحبيبة سلمى،

أختي ماذا أقول لك؟.. أنت تعلمين ما بقلبي.. هدئي من روعك يا أختي، ولا تفكري بهذه الأفكار.. فالحمد لله أنا بخير..

أتعلمين ما هو رمزي الدائم؟

انه الأمل بالحياة!.. ان عندنا من هو متألم أكثر مني بكثيـر.. صـحيح أن جسمي أنهكته الحرارة.. ولكنها ليست شيئا بالنسبة لغيري..

لا.. لا يا سلمى! لا تفكّري هكذا، والاّ فانني أكون حزينة مكتئبة..

أختي أنتم حياتي.. أنتم أملي، أنتم رجائي في هذه الحياة..

افرحوا أفرح معكم ولا تحزنوا..

لنضحك سويا.. لنقابل الحياة بوجه باسم وقوة لا تتزعزع!..

أنا لا أفكر بنفسي.. أطلب من الله أن يشفيني لأخفف عنكم عـبء الحيـاة، وآخذ نصيبي من الواجب نحوكم!..

يعلق ناظري بالضباب الطامح نحو السماء، وأتمنـى أن أكـون منـه ذرة شاعرة، أو روحا تهيم معه.. ولا أملك الاّ التفكير بهـذه الحيـاة والوجـود والبشرية فلا يسعفني الفكر وأرى نفسي في ضباب..

وكثيرا ما أرنو الى الشفق البديع يلون الغيبمات التي تكلل جبـين الـشمس بنورها الذهبي وأتمثل مشاهد من قصص أفعمت بهـا طفـولتي الـسعيدة: ساندريللا، وجنيات القمر والشمس وكليلة ودمنة والأساطير الهندية والصينية وحتى الإليادة والأوديسة وبعض روائع شكسبير التـي كانـت تحفـل بهـا مكتبتنا.. وتغمر نفسي غبطة عميقة.. وينسجم في خيالي لحن رائـع حـالم ينبثق من أعماق روحي..

لقد ذكرت أيام بيت جالا.. فهل خطر لبالك أنني كنت أفعل ما أفعـل لأثيـر إعجابك، وأظفر منك بالتقدير، فإذا بي أخطئ الحساب أحيانا، ولا أحسن سبر غورك فأقع في ملامك، وياله من ملام رقيق يطير له صوابي فلا يهدأ لـي بال حتى أطمئن الى مكانتي في نفسك أن لم يزعزعها تصرفي الأحمق!..

سأرضيك اليوم بما كبحت من بادراتي وجموحي.. وبما أذعنت له نفسي من فضائل امتلاك الأعصاب والسيطرة على الأفكار السوداء..

لا يزعجني شيء من ناحيتي، ولكنني أجد نفسي أحيانا نهبا للهـواجس مـن ناحيتكم وخصوصا من ناحيتك.. لشد ما ترهقين به نفسك يا أختـاه.. ولقـد مرت بي فترة نفسية عصيبة قبل مجيء خالد لزيارتي.. فكنت أشعر بالكآبة

تملك علي أنفاسي، فيراني الدكتور فضل عاقل واجمة، فيلح علي أن أنبئـه بما يقلقني فأفعل ويقول لي وطرفه شارد بالأفق البعيد: "سلّميها لله يا رجاء.. انها فتاة متفائلة ولن تصاب بسوء" فأطمئن وأنزع الوساوس من فكري..

كم أنا مشتاقة لكم!.. والله لولا مجيء أخي خالد لزيارتي "لانفجر البركـان" ولكن رؤيته خفف من قلقي، وشعرت كأنما أزيح عن كاهلي كل ما يئدني..

رجاء

* * *